العربي

محرم ١٤٠١ هـ - ديسمبر « كانون الاول » ١٩٨٠ م

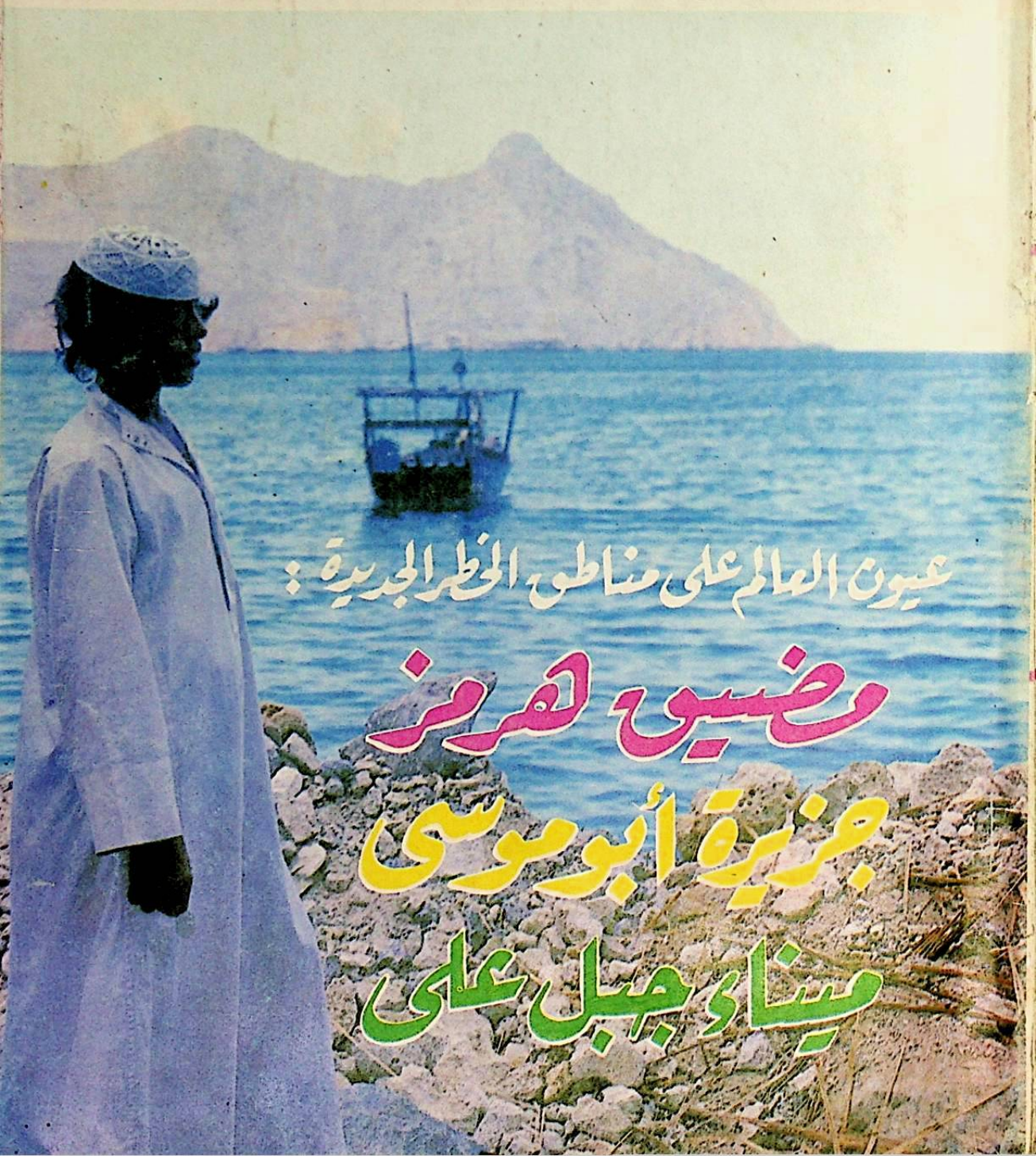

عيون العالم على مناطق الخطر الجديدة :

مضيق هرمز

جزيرة أبو موسى

سيناء جبل علي

في عيد الفطر او الاضحى يصعد رجال الدين بابواقهم ومزاميرهم فوق مآذن مدن منطقة سينكيانج ، يذكرون الناس في وقت مبكر ، ويستنفرونهم لاداء صلاة العيد

المسلمون وعصابة الأربعة !

استطلاع : فهمي هويدي تصوير : اوسكار مترى

- انتعش المسلمون في ظل الجمهورية حتى حلت « القفزة الكبرى »
- ظهرت بينهم « الجهرية » و « الخوفية » .. و « الاخوان » الوهابيون !
- لماذا وقفوا الى جانب ماو ورفضوا النزوح الى فورموزا ؟
- ما الفرق بين سياسة الحزب تجاه المسلمين وبين عصابة الاربعة ؟

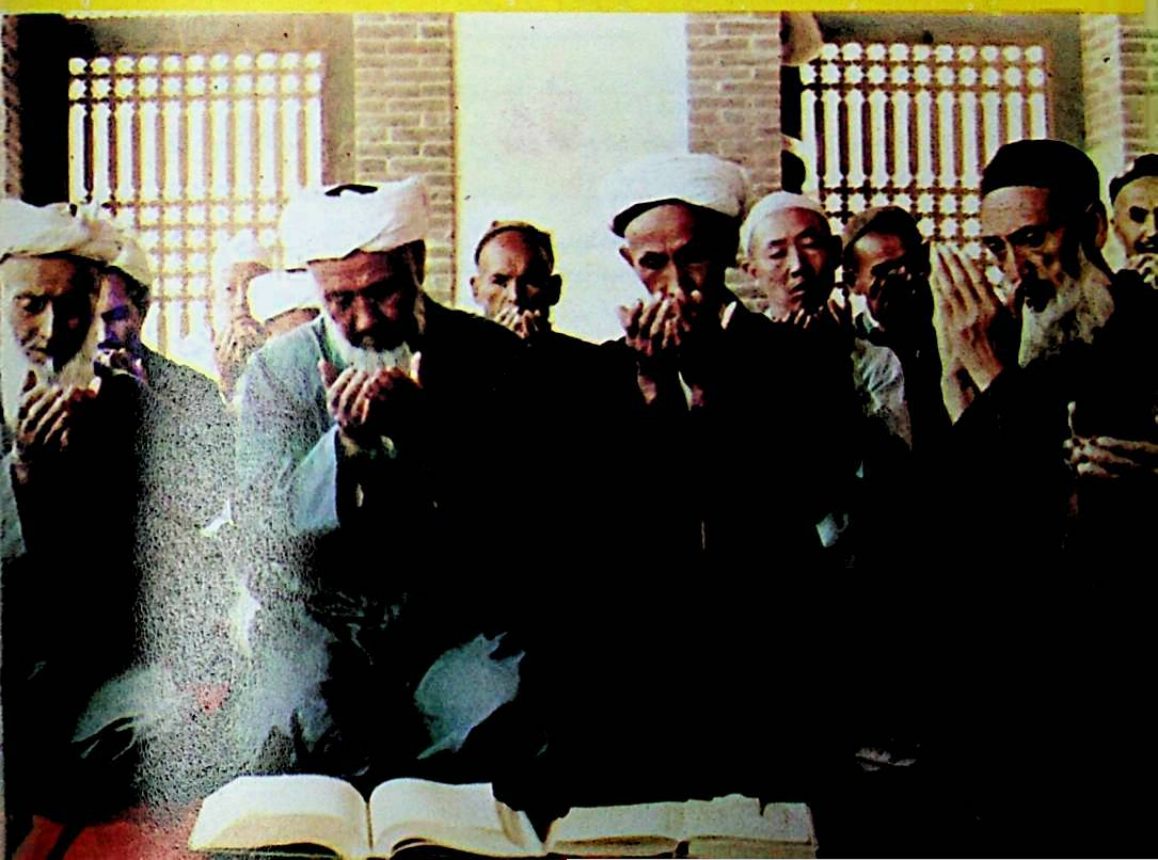

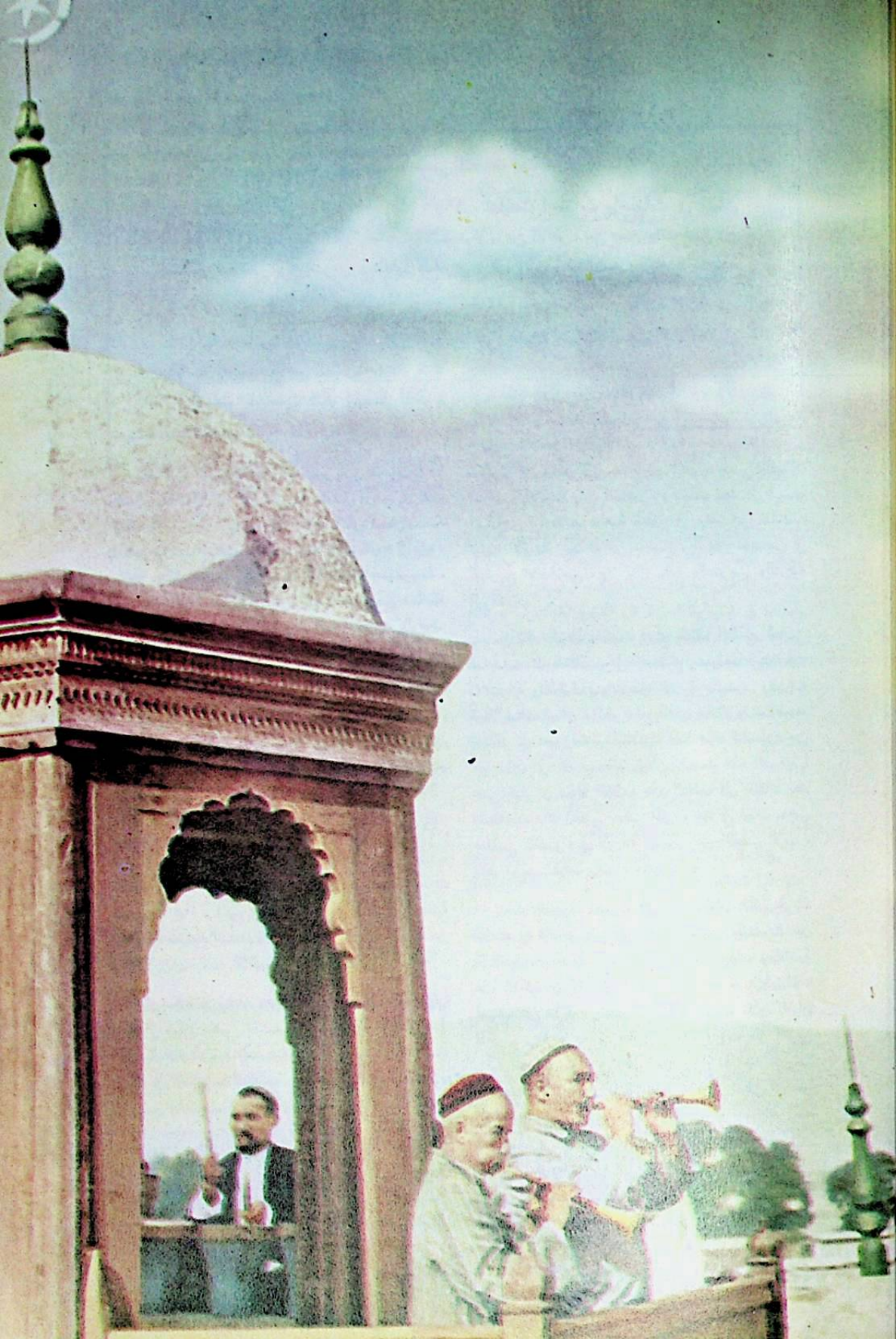

هذا فصل لم يكتب في قصة مسلمي الصين !

فمنذ سقط آخر الاباطرة في عام ١٩١١ ، تتابعت احداث واحداث في سياق القصة ، كل منها اشد اثارة ـ واحيانا اشد هولا ـ من الاخر ، من صن يات صن الى انتصار ماوتسي تونج ، ومن « القفزة الكبرى » الى الثورة الثقافية ، ومن « عصابة الاربعة » الى يومنا هذا .

كيف عاش المسلمون تلك المرحلة ؟ وما هي حقيقة سياسة الحزب تجاه الاديان والاسلام بوجه خاص ؟
لنقلب صفحات ذلك الفصل الطويل ...

منذ اليوم الاول لاعلان الجمهورية في الصين ـ ١٠ اكتوبر سنة ١٩١١ ـ كان معروفا سلفا في اي مربع يقف المسلمون ، وربما كان معروفا ايضا اي ثمن دفعه المسلمون بسبب وقفتهم هذه . ومنذ ذلك اليوم الاول ، سارع مسلمو جنوب الصين الى تأييد الجمهورية ، واستجابوا لنداء الدكتور صن يات صن الذي دعاهم فيه الى اقناع مسلمي المناطق الشمالية والغربية بالوقوف وراء الثورة ، والتضامن معها في القضاء على فلول اسرة اخر اباطرة الصين .

لذلك لم يكن غريبا ان تبادر الجمهورية الوليدة ، برئاسة الدكتور صن يات صن ، الى الاعتراف بالمسلمين باعتبارهم احد العناصر الاساسية الخمس التي تقوم عليها البلاد .

ولم يكن غريبا ان تظهر الى الوجود في عام ١٩١٢ ، اول جمعية لمسلمي الصين ، التي حملت اسم « جمعية التقدم » ، واستقر بها المقام في يونان ، حيث اصدرت بالصينية مجلة « المنبه الاسلامي » . وكانت اول جمعية اسلامية صينية استأذنت شيخ الازهر في ايفاد بعثة من شباب يونان المسلم للالتحاق بالازهر الشريف .

ولم يكن غريبا ان يتوالى انشاء جمعيات المسلمين ، واصدار صحف لهم . فانشئت ـ بعد جمعية التقدم ـ الجمعية الاسلامية الصينية في شنغهاي ، وتأسست بعدها في نانكين ـ العاصمة وقتئذ ـ « نقابة المسلمين » باذن من الحكومة .

وشهدت هذه المرحلة ايضا ظهور مجلة (نضارة الهلال) في بكين ، و (نور الاسلام) في تينجان ، و (مجلة العلوم الاسلامية) في كانتون ، وفي اوائل الثلاثينات من القرن الحالي ، سنة ١٩٣١ تحديدا ، سافرت الى مصر اول بعثة من ابناء مسلمي الصين لدراسة الاسلام في الازهر ، وكانت تضم خمسة اشخاص ، اوفدتهم جمعية التقدم في يونان على نفقتها ، بينهم الاستاذ عبد الرحمن ناجونج ، الذي تخصص في التاريخ الاسلامي ، ولا يزال يقوم بالتدريس والترجمة الى الآن .

في تلك المرحلة ، كانت نتائج تخلف التفكير الديني قد بدأت آثاره تظهر على السطح . وراجت عمليات الاضرحة والأولياء ، والتوسل الى الله بالبشر . وظهرت فرقة تعتقد في ان ما هو لونج الذي قاد ثورة مقاطعة قانصو في عهد اسرة المانشو ، انما هو « قطب » من الواصلين الى الله سبحانه وتعالى وثبتت هذه الفكرة ، حتى قيل ان منزلة القطب هذه انتقلت الى خلفائه بعد استشهاده ، مما اعطى بعض اقاربه حقا في قيادة بعض مسلمي قانصو ، في طريقة منسوبة الى القطب الاب ، ماهو لونج ، عرفت باسم « الجهرية » .

وهذه الطريقة الجهرية هي من افرازات فكرة غريبة سادت في قانصو في اوائل القرن الحالي ، وانتشرت بين المسلمين ، ووجدت فرقا تؤيدها وتدعو اليها . وخلاصة هذه الفكرة ان كلا من الخلفاء الراشدين له « طريقة » تختلف عن الاخر ، وتظهر معالمها في كيفية تلاوة القرآن الكريم ، وقراءة بعض الادعية والمأثورات عن النبي عليه الصلاة والسلام . فابو بكر رضي الله عنه طريقته « الخفية » ـ ينطقونها « خوفية » ـ حيث ينبغي ان يقرأ القرآن بصوت منخفض وغير مسموع . اما عمر فطريقته « الجهرية » ، واتباعها يقرأون القرآن بصوت جهوري مرتفع . وطريقة عثمان هي الكباريه او الكبروية ، على اعتبار انه كان كبيرا في السن . اما علي بن ابي طالب فطريقته « القادرية » ، والطريقتان الاخيرتان لهما اوراد

وادعية خاصة تميزها عن الغير !

واتباع ماهو لونج من هؤلاء الجهرية ، الذين يقرأون القرآن بصوت عال ، ويرخون ايديهم اثناء الصلاة ، ويعتقدون في الاولياء وزيارة القبور .

والى جانب هذه الطرق او الفرق ، فقد شهدت بداية القرن الحالي ظهور جماعة اخرى من المسلمين تحمل اسم « الاخوان » ، وهو الاسم الذي كان يحمله اتباع الامام محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي في الجزيرة العربية .

وقد بدأت هذه الجماعة عندما اتبع لاحد ابناء قرية كويوان (البستان) في مقاطعة قانصو ، ان يؤدي فريضة الحج عام ١٨٩٤ ، وهذا الرجل اسمه الشيخ نوح ماكويوان ، ويعرف بين المسلمين الصينيين الى الان باسم « الحاج بستاني » .

عاد الحاج بستاني من الحج ، وقد راقته تعاليم المذهب الوهابي ، الذي رأى فيها مخرجا لانقاذ الاسلام في الصين مما علق به من بدع وشوائب . فمضى يدعو الى رسالته في ضرورة العودة الى الدين الخالص ، ووضع برنامجا من ٣٠ نقطة لتحقيق هذا الهدف ، الا ان المسلمين اذا كانوا قد سعدوا بالاعتراف بهم كاحد عناصر الامة الخمس ، ومارسوا في ظل هذا الاعتراف بعض النشاطات التي كانت محظورة عليهم من قبل ، فانهم بمضي الوقت تعرضوا لمنغصات اعادت اليهم صور احزان الماضي وآلامه .

الجحافل الحديدية

وتكشف الكتابات الصينية ، المنشورة بعد انتصار ماو على شيانج كاي شيك ورجال حزب الكومنتانج (حزب الشعب) ـ عن انه حدث صدام في أواخر عام ١٩١١ ، بعد اعلان الجمهورية بين المسلمين وحاكم مقاطعة سنتياج ، ادى الى قتل مائة الف شاب وفتاة من المسلمين .

وفي سنة ١٩٢٨ ـ يذكر كتاب الصين المتحررة الصادر في بكين عام ٥٧ ـ حدث ان قام المسلمون في مقاطعتي قانصو وليشيا « بثورة مسلمة ضد فساد حكم شيانج كاي شيك وعصابته ، وقد ذهب ضحية هذا الجهاد المسلح العادل ما يربو على عشرة آلاف مسلم قتلوا في مذابح بشرية بشعة ، فضلا عن احراق منازلهم . وعاث الطغاة في قانصو فسادا ، حيث دمروا المنازل واهلكوا الحرث والنسل » .

وحينما قام المسلمون يطالبون بحقهم في الحياة ـ يضيف الكتاب ـ فان آلافاً اخرين ذبحوا فيما بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٤١ ، في مقاطعتي هيوان وكويوان . وقد بلغت قسوة رجال الكومنتانج حدا جعلهم يجبرون بعض الجنود المسلمين في الجيش ، لكي يقوموا هم انفسهم بهذه العمليات الوحشية ضد اخوانهم المسلمين .

« ولا ينسى المسلمون في الصين ، ما قاسوه من فقر مدقع في عصر الكومنتانج ، اذ كان لا يتسنى لاي فرد من المسلمين ان يذبح بقرة او خروفا ، قربانا لله ، لضيق ذات يده . حتى انهم اسموا عيد الفطر « عيد الدموع » واطلقوا على عيد الاضحى اسم « عيد الذل » .

ذلك فضلا عما قامت به حكومة الكومنتانج من هدم لبعض المساجد في شيوشين ، وبكين ، وموشياشونج تسي ، وتياستين .

ورغم ان الامر قد لايخلو من مبالغة ، فرضتها اعتبارات الهدف الدعائي الذي كان مطروحا في الخمسينات ، بعد انتصار ماو على شيانج كاي شيك ، الا ان الامر لا يخلو من بعض الحقيقة على الاقل .

ولان هذه المعلومات تتحدث عن واقع عانى منه المسلمون ايا كان حجمه ، فان ذلك يقودنا الى معرفة المربع الذي وقف فيه المسلمون عندما احتدم الصراع بين كاي شيك وماو . الامر الذي دفع المسلمين الى تأييد خط القوى الوطنية الذي تزعمه الرئيس ماو ودورهم في المسيرة الكبرى من جنوب الصين الى شماله شاهد على ذلك . فقد سمعت من شيوخهم الذين لا يزالون على قيد الحياة ، من يقول ان اشتراك المسلمين في المسيرة كلفهم خسائر فادحة في الارواح . لانهم كانوا يقدمون على غيرهم ، باعتبارهم مقاتلين اشداء ، مما حملهم عبئا اكبر من الاخرين طوال معارك الطريق .

ومن ناحية اخرى فانه عندما دقت طبول حرب المقاومة الصينية ضد الاحتلال الياباني (١٩٣٧ ـ

صورة من الداخل لمسجد مدينة كانتون ، التصميم شرقي صرف ، والنقوش والآيات القرآنية هي ذاتها الموجودة في اى مسجد في العالم العربي .. وأغطية الرأس البيضاء ضرورية لاداء كل صلاة ، والجمع بوجه اخص

١٩٤٥) كان موقف المسلمين يشرفهم حقا ، ليس فقط كوطنيين مخلصين ، بل كمقاتلين شجعان ايضا .

فقد شكل المسلمون اثناء حرب المقاومة « فصيلة قومية هوى » التي عرفت باسم « الجحافل الحديدية » ، بقيادة ضابط مسلم دخل تاريخ الصين الحديث ، لبسالته الفائقة ، اسمه هابن تشاي .

وتحت قيادة هذا المقاتل الشجاع خاضت « الجحافل الحديدية » معارك طاحنة ضد اليابانيين في شمال الصين ، حققوا فيها انتصارات باهرة ، كانت سببا في ايقاف محاولات اليابان الاستيلاء على منطقة سينكيانج .

ذلك على الصعيد العسكري وعلى صعيد اخر فان المسلمين الصينيين شكلوا اربع بعثات ، سافرت الى العالم العربي وبعض دول آسيا الاخرى ، في مهمة لكسب الرأي العام في تلك الدول الى جانب الصين في معركتها ضد العدوان الياباني .

وفي المواجهة المسلحة بين شيانج كاي شيك ، مؤيدا بالغرب والامريكان ، وبين ماوتسي تونج مؤيدا بالقوى الوطنية وعلى رأسها الحزب الشيوعي الصيني ، وهي ما يسمى في الصين الان (بحرب التحرير ٤٦ ـ ٤٩) ، فان المسلمين وقفوا الى جانب ماو ، الذي كان نجمه يصعد باعتباره رمزا لنضال الشعب وآمال جماهيره الفقيرة ، ومن بين ملايين المسلمين في الصين ، فان الذين ، اتجهوا الى فورموزا ، مع رجال كاي شيك ، لم يتجاوز عددهم ٤٠ ألفا فقط !

وعندما دخل ماوتسي تونج بكين في اول اكتوبر سنة ١٩٤٩ ، معلنا انتصار الثورة وبدء صفحة جديدة تماما ، فان مسحة من التفاؤل الشديد عمت المسلمين ، حتى تجددت ثقتهم في المستقبل الذي بدا مشرقا ومفتوح الافاق بغير حدود .

الفقهاء الاربعة

لقد كانت السنوات التي انقضت فيما بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٤٩ ـ ورغم كل ما تخللها من ملابسات ـ بمثابة مرحلة التقاط الانفاس بالنسبة للمسلمين ، مرحلة النهوض من الكبوة استعدادا لممارسة الحياة الطبيعية بغير كبت ولا قهر ولا اضطهاد .

كانت مدارسهم ومعاهدهم يتزايد عددها ، ويتحول فيها المنهج التقليدي العتيق ، الى آخر اكثر عصرية وجدوى . وكانت جمعياتهم تتدعم وتوسع من نشاطاتها رأسيا وافقيا .

وكانت صلاتهم بالعالم الاسلامي قد تجددت ، عادت وفود الحجاج الصينيين الى بيت الله الحرام ، وقطعت الجمعيات الاسلامية الاهلية شوطا لا بأس به في اتجاه ايفاد مبعوثين صينيين للدراسة في الازهر . اذ سافر خمسة اشخاص عام ٣١ ، وخمسة آخرون في العام الذي يليه ، ثم ثلاثة في عام ٣٣ ، وستة في عام ٣٤ ، ثم ١٦ مبعوثا دفعة واحدة في عام ١٩٣٧ ، وقد اطلق على هذه المجموعة التي سافرت الى مصر اسم البعثة الفاروقية ، مجاملة لملك مصر السابق « فاروق » ، الذي حرصت اول بعثة صينية الى الازهر على مجاملة ابيه (الملك فؤاد) فحملت اليه عام ٣١ هدية من الشاي الصيني الذي لم يكن قد سمع به من قبل !

وبذلك بلغ مجموع الصينيين الذين درسوا في الازهر ٣٥ شخصا ، في الفترة ما بين عامي ١٩١١ و ١٩٤٩ ، رغم ان بعضهم واجه مشاكل في الاعتراف بشهاداتهم في ظل حكومة الكومنتانج .

وفي الوقت ذاته طبع المصحف الشريف باللغة العربية ٤ مرات ، وبدأت طباعة بعض الكتب الاسلامية الاخرى .

وكانت هذه هي المرحلة التي افرزت عددا من علماء المسلمين الذين برزوا فيما بعد ، وبذلوا جهودا مضنية من اجل تعريف مسلمي الصين بدينهم على وجه صحيح . بالتأليف والترجمة من العربية الى الصينية ، ومن هؤلاء :

● الشيخ وانغ جينغ تشاي المتوفي في عشية التحرير ، ومن مواليد تيانجين وقد عمل اماما ومعلما ومحررا ـ صاحب المجلة ـ مجلة « نور الاسلام » التي انشأها وساهم هو وافراد عائلته في طبعها وتوزيعها .. ولم تتح له فرصة دخول مدرسة نظامية . وان استوعب بجهده الدائب اللغات الصينية والعربية والفارسية بل وخلف وراءه كثيرا من الترجمات ، واشهرها ترجمة « القرآن الكريم » المطبوع في سنة ١٩٤٥ ، وهي افضل واكمل ترجمة للقرآن ظهرت بالصينية ، ثم كتاب « العمدة » وهو الكتاب الفقهي الشائع في الصين منذ اكثر من ثلاثة قرون . و « كلستان » ديوان الشاعر الفارسي المعروف « سادي » ، ثم القاموس العربي الصيني .

● الشيخ محمد تواضع يانغ شي تشيان المتوفي في سنة ١٩٥٨ . وهو عالم ازهري ، كان ضمن المجموعة الاولى التي التحقت بالازهر من ابناء مسلمي الصين ،

وقد عمل اماما ومحررا ومعلما ، فضلا عن انه اول من جلب حروف الطباعة العربية الى الصين مما قدم مساهمات كبيرة في نشر الثقافة الاسلامية . واضافة الى ذلك فقد الف كتابا بعنوان « ذكريات تسع سنوات في مصر » وترجم كتاب « تاريخ التشريع الاسلامي » وكتاب « رسالة الاسلام » وكتاب « مذاهب الدين الاسلامي » وغيرها من الكتب . كما نشر عديدا من المقالات في مجلة « هلال الصين » المطبوعة أنذاك .

وقد كان الشيخ تواضع على اتصال بجماعة الاخوان المسلمين خلال سنوات دراسته في مصر حتى اصدرت الجماعة له في الثلاثينات رسالة باسم « المسلمون في الصين » .

● الشيخ ماليانج جيون المتوفي في سنة ١٩٥٧ . كان ولا يزال موضع الاحترام والتقدير لدى المسلمين الصينيين وخاصة في سينكيانج ، حيث يعتبرونه امام الائمة هناك . وكان يواظب على تأليف وترجمة الكتب الدينية باللغات الصينية والعربية والفارسية بل ولجأ ، في الظروف السيئة جدا ، الى كل الوسائل الممكن اتباعها لنشر المطبوعات .

ولم تلق اعمال الشيخ ماليانج عناية من احد ، على كثرة ما الف وترجم . ولكن ما عرض من ترجماته لا يتجاوز المبسوط « للسرخسي » و « الخمخمسات » باللغتين الصينية والفارسية ، وهي مجموعة كبيرة من القصائد الدينية .

● الاستاذ محمد مكين عضو اول بعثة درست الاسلام في الخارج ، الذي اشرنا اليه من قبل . اكمل دراساته في الجامع الازهر ودار العلوم . وبعد وقت قصير من عودته من مصر ظل طوال ٣٠ سنة يعمل استاذا في جامعة بكين حتى توفاه الله في عام ١٩٧٨ .. ومن مؤلفاته : « سيف محمد (ص) » و « موجز شرح القرآن الكريم » وترجماته : « القرآن الكريم » ـ قيد الطباعة ـ و « رسالة التوحيد » و « حقيقة الدين الاسلامي » و « تاريخ علم الكلام » و « تاريخ التعليم الاسلامي » و « منهاج التقويم الهجري » الخ .

نقطة التحول

• وكانت نقطة التحول الكبرى في الموقف ، هي انتصار الرئيس ماو ، ودخوله بكين ليتولى السلطة في عام ١٩٤٩ .

وكل الذين ناقشتهم من المسئولين ورجال الجمعية الاسلامية الصينية يقسمون مسيرة ما بعد التحرير ـ بعد سنة ٤٩ ـ الى ثلاث مراحل : مرحلة ما بعد التحرير والى بداية الثورة الثقافية ـ ثم تجربة الثورة الثقافية ذاتها ـ ثم وفاة الرئيس ماو وسقوط « عصابة الاربعة » ، وهي المرحلة المستمرة الى الآن .

لكن المناقشات التي تجري خارج هذا الاطار الرسمي تكشف عن ان تلك المراحل أربع وليست ثلاثا : مرحلة الاعداد لتأسيس الدولة (٤٩ ـ ٥٨) مرحلة بدء التطبيق الفعلي للنظام الشيوعي (٥٨ ـ ٦٦) ـ مرحلة الثورة الثقافية (٦٦ ـ ٧٦) ـ مرحلة ما بعد الثورة الثقافية ، التي بدأت منذ عام ٧٨ فصاعدا .

اي ان هناك مرحلة ساقطة في الخط الاعلامي للحزب هي تلك التي بين عامي ٥٨ ـ ٦٦ . ولانها تسبق مباشرة احداث الثورة الثقافية ، فانها تلقي الضوء على طبيعة الغرس الذي جاء بتلك الثمرة ، ومن هنا تكتسب هذه المرحلة اهميتها ، ومن هنا ايضا ينبغي ان تستوقفنا .

في البدء لابد لنا ان نتصور الجو النفسي الذي عاشته قيادة الصين في اعقاب تولي ماو السلطة عام ١٩٤٩ . عندما اصبح على قمة بلد تعداده ٥٠٠ مليون نسمة ـ وقتئذ ـ أنهكته المظالم والحروب والمجاعات ، وصارت القيادة في موقعها الفريد هذا مطالبة بأن تضمد جراح الشعب ، وتعوضه عما فاته ، وتبدأ على الفور في الحشد والترميم والبناء .

كانت القضية الاولى هي تثبيت السلطة للنظام الجديد ، وكأي سلطة ثورية ، فان شعاراتها ومثالياتها تظلل مرحلة البداية عادة ، حتى تغوص في الواقع وتتمكن منه ، فلا تمانع بعد ذلك من التنازل عن بعض هذه الشعارات والتنازلات ، لمقتضيات قد تتعلق بطبيعة الممارسة ذاتها ، او بالتوازنات الداخلية والخارجية ، او لضرورات الاستمرار والبقاء .

لقد كانت القيادة الجديدة في سنة ٤٩ وخلال السنوات التي اعقبتها ، تتحدث بلغة الثورة ، ولم تكن قد تمرست بعد على حسابات قاموس لغة الدولة .

وفي هذا المناخ فان قضية المسلمين لم تكن مثارة ، الا بالقدر الذي يحسن علاقات الصين مع دول العالم الاسلامي ، التي تقبل اكثرها باستياء فكرة قيام دولة شيوعية في الصين . واقلقها في الوقت ذاته مصير ملايين المسلمين في تلك البلاد النائية .

ولم يكن هناك سبب جوهري يدعو الى قلق المسلمين

تلاميذ مدرسة ابتدائية في
طورفان ، بمنطقة سينكيانسج ،
يخرجون من المدينة الى الحقل ،
يعملون حتى الغروب

في ذلك الوقت ، ومن الواضح انهم كانوا في حالة ترقب ، انتظارا لما ستسفر عنه التطورات الجديدة . يدلل على ذلك اننا لا نعثر على اثر لاي نشاط خارجي للجمعيات الاسلامية الموجودة آنذاك . فلا حجاج سافروا الى الاراضي المقدسة ، ولا بعثات سافرت للدراسة في الخارج ، منذ مغادرة « البعثة الفاروقية » للصين للدراسة في الازهر في عام ١٩٣٧ .

ولكننا نعثر فقط على بوادر نشاطات للمسلمين في عام ١٩٥٣ ، بعد اربع سنوات من تولي السلطة الجديدة . ففي ذلك العام ظهرت الى الوجود « الجمعية الاسلامية الصينية » كجمعية وحيدة ممثلة للمسلمين في الصين . بينما لا نجد اثارا لبقية الجمعيات التي كانت موجودة فيما قبل ، ولا لاي نشاط صادر عنها بالتالي .

نلاحظ ايضا ان الجمعية اوفدت بعثة للحج عام ٥٣ ، فور انشائها ، ربما لتكتسب شرعية التعامل مع العالم الاسلامي ، ولكن البعثة وصلت الى باكستان فقط ، ولم تواصل رحلتها الى الاراضي المقدسة ، لانها لم تستطع ان تحصل على تأشيرة دخول للسعودية .

وقد اثير موضوع حج المسلمين الصينيين في مؤتمر عدم الانحياز الذي عقد بباندونج في العام التالي مباشرة ، وذلك في اجتماع خاص بين شواين لاي رئيس وزراء الصين ، وبين الامير فيصل بن سعود ، وزير خارجية المملكة آنذاك . وفي هذا الاجتماع وافق الامير فيصل على ان تسمح المملكة لعدد محدود من المسلمين الصينيين (٢٠ شخصا) بالحج كل عام . ومنذ ذلك الحين والاتفاق سار لم يطرأ عليه تعديل .

وسافرت اول بعثة صينية للحج من الصين الشعبية الى السعودية في عام ١٩٥٥ .

في هذه المرحلة ايضا ، نلاحظ انعقاد اول مؤتمر للمسلمين الصينيين في شهر مايو عام ٥٣ ، ثم اصدار مجلة باسم مسلمي الصين في العام الذي يليه ، وانشاء معهد اسلامي تابع للجمعية في عام ٥٥ . ثم طبع القرآن الكريم باللغة العربية لاول مرة في عصر ما بعد التحرير .

وفي المرحلة ذاتها ، صدر دستور ٥٤ الذي تضمن اعلانا للحريات ، نص في المادة ٨٨ منه على « حرية الاعتقاد الديني » .

وكانت تلك الفترة قد شهدت اشتراك المسلمين في مجلس نواب الشعب (البرلمان) ، وفي مختلف المجالس الاقليمية .

وربما نستطيع ان نصف هذه المرحلة ـ فيما يتعلق بالمسلمين ـ بانها مرحلة تأميم النشاط الاسلامي ، ونقل ادارته وتوجيهه من الجمعيات الاهليه الى الدولة والحزب .

القفزة الكبرى

حتى جاء عام ٥٨ ، الذي يصنف في القاموس السياسي الصيني بانه عام « القفزة الكبرى » .

وتمثلت هذه القفزة الكبرى في : انشاء الكوميونات الشعبية ، وتعميمها على الصين كلها ، من اقصاها الى اقصاها . واعتبرت هذه الكوميونات هي الانطلاقة الحقة في اتجاه التطبيق الاشتراكي . وكان واضحا ان السلطة اقدمت على هذه الخطوة ، لاحكام الهيمنة على النشاط الاقتصادى ، بعدما استطاعت خلال الفترة من ٤٩ الى ٥٨ ترتيب البيت من الداخل ، وتثبيت السلطة السياسية .

ورغم ان انشاء الكوميونات الشعبية أحدث هزة اقتصادية عنيفة في الصين ، ورغم اننا لسنا في مجال تقييم هذه الخطوة وتتبع نتائجها ، الا انها كانت اكثر ما مس مشاعر المسلمين في ذلك الوقت ، وايقظ فيهم عوامل القلق التي دفنت مع اعلان الجمهورية .

ولم يكن قلق المسلمين نابعا من اى تاثير اقتصادى اصابهم ، رغم الاهمية الحيوية لهذا الجانب ، الا ان قلقهم نشأ اساسا من ان تطبيق نظام الكوميونات ، وتوزيع كل العاملين عليها ، كل في اختصاصه ، هذا التطبيق شمل رجال الدين ، ودمع بهم الى المزارع والمصانع فجأة ، ودون اى مقدمات !

وكانت الخطوة التالية التي زادت من قلق المسلمين هي تلك الكتابات التي بدأت تظهر في الصحف ، متسائلة عن جدوى ذلك العدد من المساجد المنتشرة بكثافة شديدة في بعض المقاطعات وداعية الى استغلال امثل لهذه « المنشآت » ، « يوفر للاقليات حرية العبادة ، ويتيح الفرصة لتوظيف تلك المنشآت توظيفا اقتصاديا ملائما » . وتراوحت تلك الاشارات بين التلميح ، والتصريح والتنديد .

وكانت هذه الحملة الاعلاميه التي تصاعدت نغمتها تدريجا ، مقدمة لقرارات اتخذت باغلاق بعض المساجد ، وتحويلها لاغراض اقتصادية تخدم « القفزة الكبرى » .

وكانت هذه هي المرة الاولى منذ عام ١٩٤٩ ، التي تغلق فيها مساجد للمسلمين .

وبصدور مثل هذه القرارات ، وتنفيذها ، تلقى المسلمون صدمة ثانية ، اشد وقعا من تجنيد رجال الدين في الكوميونات ، رغم ان الخطوة التي اتخذت بحق رجال الدين ابتداء ، ادت من الناحية العملية الى تفريغ المساجد من الائمة ، وتعطيل اقامة الشعائر فيها .

ثم لوحظ ايضا ان المعهد التابع للجمعية الاسلامية توقف عن استقبال الدارسين في عام ٥٩ ، بعد اربع سنوات فقط من انشائه . وكان هذا المعهد على تواضعه هو النافذة الوحيدة المتاحة امام مسلمي الصين لدراسة الفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة العربية ، خصوصا وان الموقف من ارسال بعثات الدراسة في الازهر ، لم يطرأ عليه اى تغيير ، وظل هذا الباب مغلقا منذ آخر بعثة في عام ٣٧ .

وبذلك اصبح كل الذين اتيح لهم ان يدرسوا شيئا عن الاسلام منذ عام ٤٩ وحتى عام ٨٠ على الاقل ، لايتجاوز عددهم مائة شخص فقط هم مجموع الذين تخرجوا من ذلك المعهد خلال سنوات عمله الأربع !

وباغلاق معهد بكين الاسلامي ، لم يبق امام مسلمي الصين منفذ واحد يستطيعون من خلاله اعداد كوادر اسلامية تقوم حتى بتلك المهام البسيطة ، من الامامة الى الخطابة ووعظ الناس .

ومع اغلاق المعهد توقف اصدار مجلة « المسلمون في الصين » ، رغم ان الطبعة الثانية من القرآن الكريم بعد التحرير قد صدرت في ذلك العام ١٩٥٩ .

وكان الاجراء الثاني المتخذ في هذه المرحلة هو : وقف سفر بعثات الحج بعد عام ١٩٦٣ .

ثم حدث ما هو اشد خطرا ، فقد تمت عمليات تهجير واسعة في بداية الستينات ، من والى مناطق الكثافة السكانية للمسلمين . نقلت آلاف الاسر الصينية من قومية الهان ـ القومية اللادينية ذات الاغلبية الساحقة ـ الى سينكيانج على وجه التحديد . ونقلت آلاف الاسر المسلمة من يونان الى مختلف مقاطعات الجمهورية .

وهذه الخطوه احدثت ردود فعل غاضبة بين جماهير المسلمين ، حتى ليقال ان انفجارا شعبيا حدث لهذا السبب في مقاطعه سينكيانج عام ١٩٦٢ ، وان الوفا من المسلمين لجأوا الى داخل الحدود السوفيتية بعد تدخل السلطة الصينية لقمع هذا التمرد .

وكانت تلك بعض النتائج التى أصابت المسلمين من جراء « القفزة الكبرى » .

ثورة الملاعين

حتى لاحت نذر الثورة الثقافية في منتصف الستينات .

ولسنا هنا في مجال تحليل الدوافع التي حدت بالرئيس ماو الى تفجير هذا الزلزال الذى قلب الصين راسا على عقب طوال عشر سنوات ، ولا ما اسفرت عنه هذه الثورة من نتائج ، فتلك كلها مسائل لازالت مثار جدل

ولكن الذى يعنينا في هذا المقام هو تأثيرات هذه الثورة على مسيرة الاسلام والمسلمين في الصين ، وهو جانب يمكن الخوض فيه بلا محاذير ، لان عناصره سلبية على طول الخط . واى استطراد او تفضيل في شرور عصابة الاربعة (لايستخدم تعبير الثورة الثقافية في الاعلام الصيني) ، هو مقبول بل مطلوب ، لانه ينسجم مع « الخط » المرسوم .

.. تريد ان تعرف ماذا فعلت بنا عصابة الأربعة ـ سألنى الحاج الياس شين نائب رئيس الجمعية الاسلامية ـ هذه مسألة يطول شرحها ، بل الالمام بها ، لانهم خربوا كل شيء .. في بلادنا .

ـ سمعت ان رئيس الجمعية ، الحاج محمد على تشانج ، تعرض للضرب من قبل شباب الحرس الاحمر .

ـ الملاعين ، لم يتركوا واحدا منا الا واهانوه . لقد كان الاذى الذى تعرض له الحاج محمد على محددا من الناحية المادية ، فادحا وكبيرا ، اذا ما راعينا منصبه . اما ماجرى معى فلايمكن وصفه ، فقد كان من الناحيتين المادية والمعنوية شيئا فظيعا للغاية . الحمد لله ، فقد ذهبوا وراحت ايامهم السوداء !

قالها الحاج الياس بمرارة ، وعيناه زائغتان في الفضاء ، تبحث عن شيء او تستعيد شيئا ..

وعلمت فيما بعد ان الرجل قد ضرب ضربا مبرحا في « قانصوه » ، حيث كان نائبا لرئيس الجمعية الاسلامية في المقاطعة ، وواحدا من تسعة نواب للرئيس يباشرون نشاطات الجمعية في مختلف انحاء الصين .

وقال لى مرافقى « محمد » ان رجال الدين الذين كانوا متواجدين في العاصمة لم ينلهم كاشخاص اذى بدنى كبير ، بسبب وجود سفارات الدول الاسلامية في

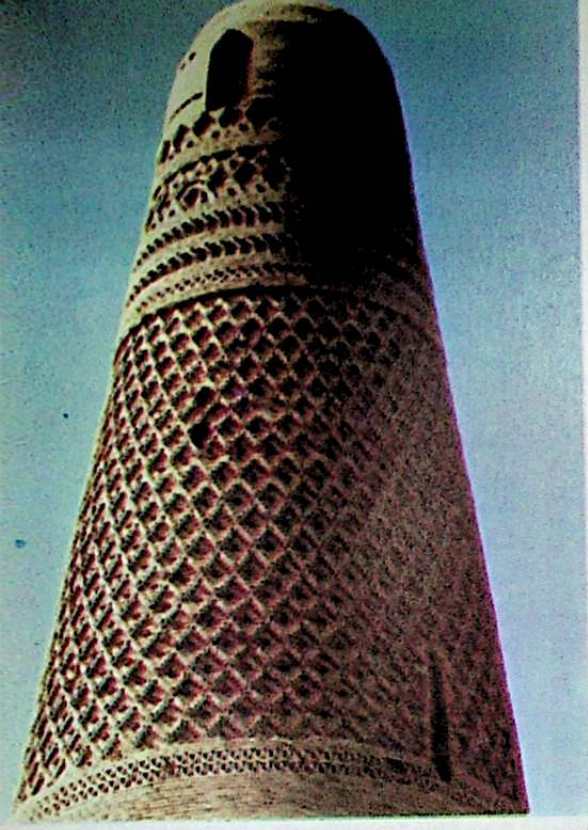

مجموعة من معالم الواقع الاسلامي في غرب الصين ، مئذنة مسجد بتصميمها الجميل ونقوشها البديعة ، لكنه قائم وسط الحقول قرب مدينة طورفان ، ولا يطرقه المسلمون الا في الاعياد ، ثم احدى المسلمات من التتار وقد حملت طفلها ، والاثنان بثيابهما التقليدية ، واخيرا ـ في الصورة السفلى اثنان من رجال الدين المسلمين في اورموشى وقد جلسا للتسبيح بعد صلاة الجمعة

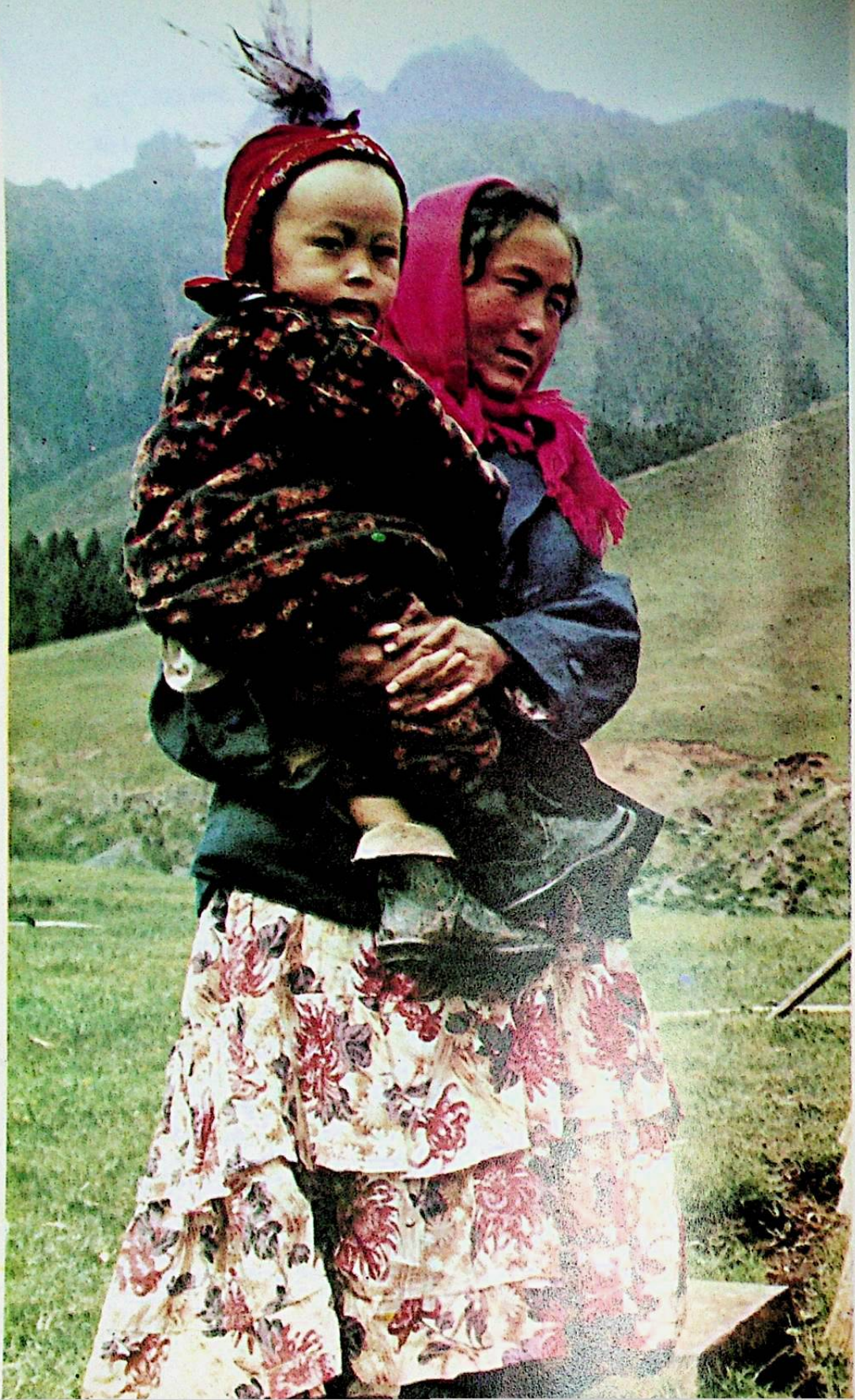

بكين . وحتى لايطلع الاجانب على عمليات كهذه يقوم بها شباب الحرس الاحمر . ولكن الذين كانوا في الاقاليم لقوا الكثير من الاهانات . فقد اعتقل كثيرون من رجال الدين ، مئات منهم اقتيدوا الى السجون ، وعذبوا تعذيبا شديدا . والذين لم يسجنوا ضربوا في الشوارع ، او اقتيدوا وسط تهليل الجماهير وسخريتهم ، وقد علقت على ظهورهم كلمات مثل الشياطين والاسباح والغيلان ،

ليس هذا فقط ، ولكن هؤلاء الشبان اقتحموا بيوتهم ، واخذوا كل ما لقوه من مصاحف وكتب ، واحرقوه علنا في الشوارع ، على اعتبار ان هذه الكتب ـ بقايا الثقافة الرجعية والبورجوازية وبسبب هذه الحرائق فقد المسلمون مئات من الكتب المخطوطة والنادرة .

وسمعت من الاستاذ عبد الرحم ناجونج ، استاذ التاريخ الاسلامي في معهد اللغات الاجنبية ببكين ، ان مكتبته الخاصة التي افنى في تكوينها ثلاثين عاما من عمره انتهبت كلها ، والقيت مراجعه حيث احرقت ، ولم يستطع ان ينفذ من هذا المصير المحزن سوى كتب بعدد اصابع اليدين !

لقد ظلت اعداد كبيرة من رجال الدين حبيسة البيوت أشهرا طويلة ، خشية الخروج الى الشارع والتعرض للاهانة والسخرية ، ولكنهم لم يسلموا من ذلك المصير المؤلم ، فقد كانوا ينتزعونهم من منازلهم ، ويوجهون اليهم الشتائم والسباب وكلمات التجريح ، باعتبارهم رموزا للرجعية .

وامتدت الحملة الى المساجد ، التي اغلقت جميعها في خارج بكين ، وهدم بعضها وحول البعض الاخر الى ورش ومخازن ومحال تجارية . وتعرضت المقاطعات ذات الكثافة السكانية المسلمة الى قدر متزايد من هذه الاجراءات . حدث ذلك في مقاطعات سينكيانج وقانصو ونينج شياه بوجه أخص .

وقد ابقوا على مسجد واحد في بكين (مسجد تونج سى بالو) ليصلى فيه الدبلوماسيون العرب في الاعياد والمناسبات .

حتى كفن الموتى !

والى جانب هذه الاجراءات ، فقد اتخذت خطوات في الاتجاه ذاته .

ـ الغيت عطلة عيد الاضحى والفطر ، « حتى لايتعطل الانتاج » ، وكانا من الاعياد المعترف بها ، والتي يسمح للمسلمين بالتغيب اثناءها . وهما يومان فقط في العام ، كانا ثلاثة من قبل حيث اعتبرت ذكرى المولد النبوى عطلة للمسلمين ، ولكن لاعتبارات « استمرار عملية الانتاج » حذفت عطلة المولد من الاعياد المعترف بها للمسلمين .

ـ منع المسلمون في مقاطعة سينكيانج من استخدام الحروف العربية في الكتابة ، واجبروا على استخدام الحروف الصينية . وهذه الحروف العربية يستخدمها المسلمون ذوو الاصول التركيه ، الذين يعرفون بقومية « الاويغور » ، وعددهم ستة ملايين نسمة ـ حسب الاحصاء الرسمي ـ في سينكيانج .

ـ منع المسلمون في مناطق الكثافة السكانية الاسلامية من ارتداء ثيابهم القومية ، واجبروا على استخدام الثياب الرسمية الزرقاء اللون (الجاكت المغلق والبنطلون) .

ـ جرت عمليات تضييق على المسلمين في تقاليدهم وحياتهم الخاصة . فقد اعلن وقتئذ ان كل مسلم ـ مثلا ـ يموت ياخذ ١٥ قدما من القماش الابيض للكفن ، وذلك بمقتضى كوبونات خاصة تعطى المسلمين هذا الحق في حالات الوفاة ، احتراما لشعائرهم . ولكن قيادة الثورة الثقافية اعتبرت هذا الاستثناء عبئا اقتصاديا على الدولة ، فضلا عن انه « عادة بورجوازية قديمة » يجب التخلص منها . وفعلا اوقف صرف هذه الكوبونات للمسلمين .

وقد تم ذلك كله وسط جو اعلامي شن حملة عنيفه على الاديان جميعا ، وكل « الغيبيات الموروثه عن عصور الاقطاع والرأسماليه » ، وداعيه الى « القضاء على بورجوازيه الفكر والتقاليد التي تقف حجر عثره في طريق التطبيق الاشتراكي » .. الى آخر تلك الصياغات التي تهدم في حقيقتها كل ما اعلنته الثورة في عام ١٩٤٩ من شعارات وضمانات تحمى المتدينين وحرية الاعتقاد .

وكما انه كان للاسلام موقع متميز بين الاديان الأخرى منذ بداية الثورة ، فقد كان له نصيب متميز ـ بنفس القدر ـ من اجراءات وعمليات التشهير والتجريح . حتى ان الثورة الثقافية شكلت منذ بدايتها « مجموعة ثورية لمقاومة الاسلام » . تولت ترتيب واصدار كل هذه الاجراءات ، وغيرها بطبيعة الحال .

وحتى يتوفر غطاء قانوني لهذا الاتجاه ، فقد تم تعديل المادة ٨٨ من دستور عام ٥٤ ، التي تنص على

ضمان الاعتقاد الديني لمواطن الجمهورية الصينية ضمن التعديلات الدستورية التي تمت في عام ١٩٥٧ . وكان نص المادة ٢٨ من الدستور المعدل على النحو التالي : للمواطنين حرية الكلام والمراسلة والنشر والاجتماع والتنظيم والمسيرة والتظاهر ، وتكوين الاحزاب . ولهم حرية الاعتقاد الديني ، وحرية عدم الاعتقاد في الاديان ، ونشر الالحاد .

ومن التعديل الذي ادخل على الدستور الصيني ، لم تعد حرية الاعتقاد الديني تنفرد بمادة مستقلة ، بل ادمجت في قائمه مطوله من الحريات ، يجيء الاعتقاد الديني في الترتيب التاسع منها .

لكن الاهم من ذلك ان النص يكفل ـ في الورق على الاقل ـ حرية الاعتقاد فقط ، بينما يكفل في الجانب الآخر ليس فقط حرية الالحاد ، ولكن أيضا حرية الدعوة الى الالحاد ، وهي ميزة لا تتوفر لاصحاب الاديان ، وتعني بوضوح أن حجم الحريات غير متكافىء بين المؤمنين والملحدين .

بهذه الصورة مرت على المسلمين سنوات الثورة الثقافية العشر ، من ٦٦ الى ٧٦ ، التي اعادت الى اذهانهم ظلامات العهود الغابرة ، وبددت كل ما تعلقوا به من احلام واوهام ، واهدرت كل ما انجزوه وبنوه منذ اعلان الجمهورية في عام ١٩١١ ، وسدت طريق الامل الذي انفتح امامهم عشية « التحرير » في عام ٤٩ ، وبدا المستقبل امامهم قاتما وكئيبا ، لايرون في آفاقه سوى سحابات حزن لا نهائي .

الانتهاك بالقانون

تلاحقت الاحداث بسرعة في منتصف السبعينات . بدءا بمحاولات ماو كبح جماح الثورة الثقافية ، وحصار نشاطاتها ، ثم وفاة الرئيس الصيني سنة ٧٦ ، ثم الصراع على السلطه الذي انتهى « بسحق عصابة الاربعة » ، والاعلان عن طى صفحه الماضي وبدء مرحلة جديدة عام ٧٨ .

وفي السياق الذي نحن بصدده ، فان هذه التطورات اسفرت عن « اعادة تنفيذ سياسة الحزب الشيوعي الصيني ، حول المساواة القومية وحرية الاعتقاد الديني » ، كما اعلن رئيس الجمعية الاسلامية في تقريره الى المؤتمر الرابع لمسلمي الصين ، الذي عقد في ابريل سنة ١٩٨٠

وهنا ينبغي ان نتوقف قليلا ، في محاولة للاجابة على السؤال الذي يتبادر الى الذهن مباشرة ، عند طرح هذه المقوله ، والسؤال هو : ما هي بالضبط سياسة الحزب في شأن حرية الاعتقاد ؟

وضعت السؤال امام الحاج محمد على تشانج ، رئيس الجمعية الاسلامية ، فكان رده ان الاجراءات التي اتخذت بعد سحق عصابة الاربعة كفيله بالرد على السؤال . فقد حذف النص الذي كان قد اضيف الى دستور ٧٥ واستبدل بنص آخر اكثر تقدما في دستور ٧٨ يقضى بما يلي : جميع المواطنين لهم حرية الاعتقاد الديني ، كما ان لهم الحق في عدم الاعتقاد ، وفي الدعوة الى الالحاد .

ولضمان عدم الاساءة الى المتدينين ورجال الدين ـ واعرابا عن حسن النيه من جانب السلطه الجديده التي جاءت بعد وفاة الرئيس ماو ـ فقد اضيفت في عام ٧٩ مادة الى قانون العقوبات (رقم ١٤٧) تنص على انه : يعاقب موظفو الحكومة بالسجن بحد اقصى سنتين ، او بالحبس ، اذا ما افرطوا في تجريد المواطنين من حريتهم في عقيدتهم الدينية ، او انتهكوا اعراف وعادات ابناء الاقليات القومية ، على نحو غير شرعي .

واضاف رئيس الجمعيه ، ان النص الجديد الذي اضيف الى قانون العقوبات صدر بناء على اقتراح من رجال الدين (يقصد الجمعيه) . حتى لا يتكرر ما حدث خلال تلك السنوات العشر المشئومه .

ثم عدد الحاج محمد على الخطوات الايجابيه التي اتخذت منذ عام ٧٨ ، في اتجاه مراعاه مشاعر المسلمين واحترام شعائرهم وتقاليدهم ، والتي تدور في فلك احياء بعض نشاطات الجمعية الاسلامية (الوعد باعادة فتح المعهد الاسلامي ـ طبع القرآن الكريم ـ للمرة الثالثة منذ عام ٤٩ ـ اعادة اصدار مجلة « المسلمون في الصين ») ، ثم استئناف ايفاد بعثات للحج ، الذي في عام ١٩٧٩ ، ومحاولة اعادة جسور الاتصال المختلفة مع العالم الاسلامي ، مثل تبادل الزيارات وحضور الندوات والمؤتمرات الاسلامية ! اول مؤتمر من هذا النوع مثل فيه مسلمو الصين كان الملتقى الاسلامي بالجزائر الذي عقد في سبتمبر ٧٩) ، ثم فتح المساجد المغلقه (في سينكيانج وحدها تقرر اعادة فتح اكثر من ١٩٠٠ مسجد تدريجيا) .. واعادة عطلتي المسلمين في عيدى الفطر والاضحى .

ورغم ان هذه الاجراءات يمكن اعتبارها ايجابيه نسبيا ، اذا قورنت بتجربة المسلمين خلال الثورة الثقافيه ، الا ان الاطار القانوني الذي يفترض انه يحمي نشاطات المسلمين ، والمتدينين عموما ، من العدوان والانتهاك . هذا الاطار تمت صياغته باسلوب غريب ومثير للدهشة .

ذلك انه اذا صحت الترجمه ـ واغلب الظن انها صحيحه لانني وجدت النص منشورا بالصيغة ذاتها في بحث حول المسلمين في الصين بمجلة الصين المصورة (عدد واحد لسنة ٨٠) ـ فان كلمات النص الذي اضيف الى قانون العقوبات ، تعاقب الذين « يفرطون » في تجريد المواطنين من حريتهم في العقيده الدينيه ، والذين ينتهكون اعراف وتقاليد الاقليات القومية « على نحو غير شرعي » وذلك معناه ان النص لا يجرم تجريد المواطنين من حرية العقيدة ، من حيث المبدأ ، ولا يعارض انتهاك تقاليد الأقليات من الاساس . اى ان التجريد اذا تم بغير تفريط ، والانتهاك اذا تم على نحو شرعي ، فانه يصبح قانونيا ، ومقبولا !

ان القلق الذي يثيره وجود نص بهذه الصيغة ، يفتح باب التجريد والانتهاك تحت مظلة القانون وفي حمايته ، لا يمكن ان ينفصل عن مرحلة ما قبل الثورة الثقافية التي استمرت فيا بين عامي ٥٨و٦٦ ، والتي يخرجها الخط الاعلامي للحزب من نطاق الادانه ، مغتبرا ان تخريب سياسة الحريات الدينيه بدأ فقط في عام ٦٦ ، وفي ظل سيطرة عصابة الاربعة .

واذا كانت تلك السنوات الثماني مصنفه باعتبارها احدى مراحل التطبيق السليم لسياسة الحريات الدينية ، فان ذلك يصبح مدعاة للتشاؤم الشديد في المستقبل . اما اذا اعتبرت ممارسات تلك المرحله من قبيل عمليات تخريب السياسة الدينية ، فلماذا تم تجاهلها اذن ، واسقاطها تماما من كل صور التقييم الاعلامي ، ولماذا العزوف عن ادانتها ؟

هل هى حقا سياسة الحزب ؟

الذين سألتهم في بكين لم تخرج اجاباتهم عن حدود الخط الاعلامي الرسمي . الحزب مع حرية الاعتقاد ، وتاريخ الشر في الصين الحديثه بدأ بظهور « عصابة الاربعة » على مسرح السياسة !

يقولون هذا الكلام بصياغات مختلفه ، ويتركونك تضرب اخماسا في أسداس ، وتصدق او لا تصدق ، واثقين من انك بعد الالحاح والتكرار ، لا بد ان تصدق .. هكذا يفعل الصينيون مع انفسهم على الاقل !

ومع ذلك كله ، فلا احد ينكر ان سنوات ما بعد عام ٧٨ قد جاءت بانفراج نسبي ، عبرت عنه مجموعة الاجراءات الايجابيه التي اتخذت بحق المسلمين ، وساعدت عليه عوامل كثيره ذكرنا بعضها فيا قبل . لكن المشكله ان هناك نوعا من الجراح يصعب التئامه ، لكثرة النزف من ناحية ولما يصيب خلايا الجسم من وهن وضعف ، من ناحية اخرى . ثم ان هناك نوعا من الضربات لا تحدث جروحا او ندوبا فقط ، ولكنها تحدث عاهات مستديمه ايضا . وفي الجسد الاسلامي الصيني العديد من تلك الجراح صعبه الالتئام ، ومثلها من العاهات المستديمة !

نعم ان الكيان الاسلامي لا يزال حيا لم يمت ، يشهد ان لا اله الا الله وان محمد رسول الله ، تراه في المساجد ، احيانا ، وفي الجنازات والمدافن احيانا ، وفي حفلات طهور الاطفال والزفاف والاعياد كثيرا ، لكن الجراح والعاهات ومسيرة الاحزان غيرت منه الكثير . هدت قواه وبدلت ملامحه ، ولم يبق فيه سوى القلب . وباتت حالته فريده من نوعها كأى جسد تلفت اعضاؤه وتعطلت وظائفه وماتت خلاياه ، ولكن شاءت حكمة الله ان يظل نبض القلب فيه مسموعا ، تتردد دقاته ، متحدية كل حسابات العقل والعلم .

ولكن ذلك كله الى اجل .. ولكل أجل كتاب !

■■

العدد القادم من :

العربي

عدد ممتاز